كلمة الدكتور مروان المحاسني
في احتفالية المخطوط العربي(*)

أيها الحفل الكريم:

يطيب لي أن أرحب بكم أجمل ترحيب، وأشكرَ لكم متابعتكم للنشاطات الثقافية المجمعية، وجميعها تَصبُّ في مجالات تخدم مسار لغتنا الحثيث للتطابق مع مقتضيات العصر. ولا يكون ذلك إلا بالاستناد إلى معرفةٍ دقيقة لمحتويات تراثنا، بما يساعدنا على إيجاد تطابقٍ مستمر بين لغتنا، وبين حضارةٍ غازية جارفة تحمل حقائقَ الحاضر، وهي قادرة على استكشاف مقوّمات عالم المستقبل.

ذلك أن العلاقة العضوية الوثيقة القائمة بين حضارتنا ولغتنا، هي الحافظ لنا من مخاطر الاستغراب أي التغريب الطوعي، إذ إنها تَحُول دون انزلاقنا في قطيعةٍ معرفية مع تراثنا الحضاري، الذي هو عماد هويتنا.

وليس تخصيص ندوةٍ تنظر في كنوزنا التراثية، المستقرة في مخطوطاتٍ تجاوزت الكثيرَ من صُروف الدهر لتصل إلينا، سوى تأكيدٍ لضرورة التقرّب من منطلقاتنا الثقافية، نستقي منها ما يساعدنا على ازدراء تلك الهمسات، بل

(*) ألقى رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق الدكتور مروان المحاسني هذه الكلمة في احتفالية المخطوط العربي التي أقيمت بتاريخ ١/ ٦/ ٢٠١٦م.

تلك التخرّصات، التي يغلب عليها التشكيك في مقدرة اللغة العربية على الاضطلاع بأعباء الحداثة.

إنّ الغرض من العودة إلى التراث، مطبوعاً كان أو مخطوطاً، هو إبرازُ ما قد يكون خافياً علينا، في أصولٍ لم تَحظَ باهتمام الباحثين، مِن نصوصٍ تحتوي على إضافاتٍ أو تحليلات، تسلّط الضوء على بعض المفاهيم التي ينقصها الوضوح، معتمدين معرفةً لغويةً هي وحدَها قادرةٌ على فتح مغاليق تاريخنا الفكري، بما يوصلنا إلى استخلاص الفوائد والعِبَر، من ذلك الصرح العلمي والفلسفي والإبداعي الذي أقرّ الغرب أنه بنى حضارته عليه.

وإنّ الانتماء إلى مجال لغوي يعني الانتماء إلى جميع مكوّنات الثقافةِ التي تحملها اللغة، تلك المكوّنات التي تجتمع فيها القناعات والرموز، والتمثلاتُ والعقائد، والمواقف وردود الأفعال، وجميعها تتجلّى في الإرث الحضاري المطبوع في الذات الحضارية.

من المؤكَّد أن التعمّق في التراث هو الذي يقف في وجه ما تحمله العولمةُ من مغرياتٍ وتطلعات يستسلم لها المشرقي، بل يغرق فيها منجذباً إلى بريقها، نابذاً ما اعتاده في حضارته الأثيلة من اعتمادٍ صامد للعقل، يحول دون انجرافه بعيداً عن ثوابتَ لا يجوز له أن يَحيد عنها، إلا حين يجدُ أن ذلك يتّسق مع قيمه، وينسجم مع معايير ذاتيته الثقافية.

وما قصده مجمعنا من تسليط الأنظار على شؤون المخطوطات، هو إعادة المصطلحات إلى نصابها، بعد أن رأينا الكثيرين يعتقدون أن إحياء التراث يقتصر على المخطوطات المتعلقة بعلوم العربية، وبالتفاسير الفقهية، جازمين بأننا قد استحوذنا منها على أهم محتوياتها بما يكفي لخدمة اللغة والدين، متجاهلين بذلك القيمَ الفكرية والأخلاقية، التي حملتها

المخطوطات إبَّان ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، كحرية الفكر، وكرامة الإنسان، وحرية انتقال الأفراد، وانتقال الأفكار والسلع، إلى جانب ذلك المستوى الرفيع من العلوم الدقيقة كالبصريات وعلم التشريح والكيمياء وغيرها من العلوم التي هي الحامل الأساسي للعلوم الغربية الحديثة.

نحن الوارثون لنتاج الآباء والأجداد الذي نطلق عليه اسم التراث، وهو مصطلح يجب علينا توضيح ما يوجد من فُروق بينه وبين مصطلحين آخرين مشتقَّين من الجذر ذاته، هما مفهوم الإرث ومفهوم الميراث.

هما لفظتان تخصّان ما يخلّفه الميت لورثته، وتشيران إلى نصيب الأفراد من تركة الميت، أي إنهما تفترضان موت الأب المُورّث للمال والاسم والجاه.

أمّا مفهوم التراث في العصر الحديث فيشير إلى موروث حضاري وفكري يعني حضورَ الأبِ في الابن، بما يضمن استمرار الماضي في الحاضر، لينعم الأبناء بمنطلقات فكرية وأخلاقية توصلهم إلى آفاق جديدة.

إن العودة إلى التراث تثير تساؤلاً متكرراً: ما دام كل من التراث والتاريخ متعلقاً بالماضي فما الفرق بينهما؟ وأرى أن الإجابة عن هذا السؤال قد شرحها محمد أركون في كتابه عن تاريخية الفكر الإسلامي، وهي أنه إذا كان التاريخ هو الماضي في بعده التطوري، فإن التراث هو الماضي في بعده التطوري موصولاً بالحاضر ومتداخلاً معه ومتشابكاً به، أي كما يقول ليفي برول «Levy Bruhl »، العالِم الاجتماعي الفرنسي، في كتابه عن الأقوام البدائية «Mythologie Primitive»: «إن الأقوام البدائية لا تاريخ لها، بينما نعيش نحن في عالم تاريخي له مستقبله الذي تمّ إنجاز جزء منه هو الماضي القومي، وبقي الجزء المتمم وهو في قيد الإنجاز».

وإن النظرة إلى الماضي القومي وإلى المستقبل جعلت مجامع اللغة

العربية تطرح موضوعين لغويين هامين يَسبران أعماق التراث. أحدهما هو **الذخيرة اللغوية** التي تسعى إلى جمعٍ كاملٍ لما يمكن الوصول إليه من اللغة العربية، في برنامج حاسوبي يُتوّج ما نجده في المعاجم، متساوقاً مع ما تميزت به المراحل الزمنية من تغيرات. والمشروع الثاني هو مشروع **المعجم التاريخي للغة العربية** الذي اختص فيه كل مجمع ببرهة زمنية تاريخية محددة، لدراسة النصوص الشعرية والمخطوطات والكتب التراثية الهامة، لتبيان ما يطرأ على اللغة العربية من تطورات عبر العصور.

إن اهتمام مجمعنا بصيانة ما لديه من مخطوطات جعلنا نستعين بخبير عالمي هو صاحب مؤسسة جمعة الماجد الذي أرسل لنا عدداً من الخبراء نظروا في مخطوطاتنا ودرّبوا العاملين لدينا على حفظها، وترميم بعض ما يمكن أن يُصيبها من تَلَف، ونحن نسعى إلى إدخال محتوياتها في برنامج لغوي حاسوبي عالمي، يجعل تلك الكنوز الثقافية في متناول الدارسين أينما كانوا.

أيها السيدات والسادة:

حقيقة الأمر أنه لا يمكننا إحداث قطيعة تامة مع بعض عناصر التراث كاللغة والقيم والتقاليد والمشاعر، لأنها تكوّنت طيلة حقب تاريخية طويلة، واللغة القومية هي عمادها، ولا تولد الشخصية القومية الحضارية في الحاضر بل هي امتداد لخبرات الأجيال.

ومازلنا نتبحّر في دقائق تراثنا المتغلغل في نفوسنا، مؤمنين بأنه عون لنا على التطور والنماء، لأنه إنساني في قيمه ومناهجه ومواقفه.

لذلك نقول: باللغةِ واللغةِ وحدَها يندمج الفرد في المجتمع، مستوعباً تراث الأمة الفكري والأخلاقي والشعوري، مستنبطاً نتاج قرائح الكتّاب والشعراء والمفكرين على مرِّ الحقب والأزمان.

وما زلنا ننهل من تراثنا كؤوساً مترعةً من الألفاظ المعتمَدة في العلوم، وفي المجالات المعرفية المختلفة، وهي اللبنات الأساسية في بناء فهمنا لحاضرنا، ولرصْف مكونات مستقبلنا.

وكما يقول الفيلسوف الألماني (هردر):

«قلب الشعب ينبض في لغته، وروحه تكمن في لغة الآباء والأجداد».

والسلام...

* * *